الباب الثالث

النقد تجاه الثقافة

الفصل الأول : شيوع البديع وظهور مذهب الصنعة

عمود الشعر عند النقاد العرب

الفصل الثاني : النقاد العرب ومذاهبهم

الفصل الثالث : شخصيات ناقدة

الفصل الأول

شيوع البديع وظهور مذهب الصنعة :

أول مـــن ألف في البديع كتاباً عبد الله بن المعتز ، وكانت غايته منه الـــرد علي الشعوبية وبيان أن المحدثين من الشعراء لم ينشئوا البديع إنشاء ، وإنما نموا صوراً منه وجدوها في كلام العرب وأشعارهم .

وبنـــي ابـــن المعتـــز كـــتابه علي أبواب خمسة هي باب الاستعارة والتجنـــيس والمطابقـــة ورد أعجاز الكلام علي ما تقدمها والمذهب الكلامـــي . ولما فرغ من بيان هذه الألوان تحدث عما سماه محاسن الكـــلام وردهـــا إلـــي أربعة عشر لوناً وهي الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج من معني إلي معني وتأكيد المدح بما يشبه الـــذم وتجاهـــل العارف والهزل الذي يراد به الجد وحسن التضمين والتعـــريض والكناية وحسن التشبيه وحسن الابتداءات والإفراط في الـــصفة وإعنات الشاعر نفسه في القوافي وجاء بعده قدامة فأضاف إلـــي هذه الألوان ألوانا أخري أهمها صحة الأقسام وصحة المقابلات وائـــتلاف اللفظ مع المعني وائتلاف القافية مع بقية البيت والتوشيح والإيغال .

وخلف من بعد قدامة وابن المعتز أبو هلال العسكري فأضاف ألواناً جديـــدة، ثم جاء من بعده ابن رشيق فبلغ بهذه الألوان نحو السبعين

وما زال المؤلفون في النقد والبيان يزيدون فيها ويضيفون حتي ألف أسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ كتابه " البديع في نقد الشعر " وقد جعلـــه فـــي خمـــسة وتسعين باباً وخلفه ابن أبي الإصبع المصري المتوفي سنة ٦٤٥ ونراه يؤلف في ألوان البديع كتابين هما " تحرير التحبيـــر " و " بدائع القرآن " وعنده بلغت هذه الألوان مائة وخمسة وعشرين لوناً .

وهـــذه الكثـــرة من الألوان تحمل كثرة من المصطلحات والألقاب ، وهي كثرة متعبة لا للقارئ فحسب ، بل أيضا لهؤلاء المؤلفين الذين كدوا عقولهم وأجهدوها في وضع الأسماء والمصطلحات ، إذ أخذوا يحاولون التمييز بين صور التعبير ، وكلما رأوا صيغة جديدة سموها اسماً ، وكثيراً ما تتشابك الأسماء وصور التعبير التي تدل عليها .

وتحـــولت المسألة إلي ما يشبه السباق ، فكل يؤلف في البديع ، وكل يحاول أن يضيف مصطلحاً أو لقباً ، وتتكاثر الألقاب والمصطلحات وتقفـــز مـــن حين إلي حين قفزة واسعة ، إذ يسجل أحد المتسابقين رقماً عالياً .

وما تزال هذه القفزات والتسجيلات تتوالي حين يبلغ الرقم نحو مائة وأربعـــين ، ويتفنن المتسابقون في طريقة عرضهم لمبتكراتهم ، ولا نلـــبث أن نجـــد صفي الدين الحلي المتوفي سنة ٧٥٠ للهجرة يؤلف

قـــصيدة فـــي مديح الرسول تجمع ألوان البديع وتضم أنواعه ، وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية ومطلعها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم

واقر السلام علي عرب بذي سلم

وكانـــت هذه أولي البديعيات ، وطريقته أن يجعل كل بيت فيه شاهداً علـــي لـــون أو نوع من أنواع البديع ، وكتب لها شرحاً يوضحها . وتعاقبت البديعيات أو هذه القصائد النبوية البديعية من بعده فألف تقي الدين بن حجة الحموي بديعية افتتحها بقوله :

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم

براعـــة تسهل الدمع في العلـــم

والتـــزم فيها وزن بديعية صفي الدين وهو البسيط ، كما التزم قافيها وأكثـــر مـــن ذلـــك نراه يلتزم تسمية النوع البديعي الذي يشير إليه البيت .

وألـــف علي بديعية شرحاً طويلا سماه " خزانة الأدب " أكثر فيه من الشواهد والأمثلة . وتوالت هذه البديعات ، وتوالت الشروح .

وواضح أن هذه البديعات لم يكن الغرض منها مدح الرسول – صلي الله عليه وسلم – وإنما كان الغرض أن تجمع كل أنواع البديع وفنونه فـــي قـــصائد تعليمية تقصد إلي تعليم الناشئة صور البديع ومحسناته اللفظـــية والمعـــنوية ، وتأخـــذ القصيدة شكل متن موجز ، أو شكل

تلخـــيص مجمـــل ، وهـــو تلخـــيص فـــيه صـــعوبة وفيه ما يشبه الألغاز ، ولذلك يعود الناظم فيشرحه حتي يفهم .

وعلـــي هـــذا الـــنحو نـــصل فـــي الـــبديع إلي أبعد الاختصارات والتلخيـــصات ، ثم نحتاج إلي الشروح المطولة ، لكي نطلع علي ما يـــريد المختـــصرون والملخـــصون ، وقلمـــا أفدنا من هذا أو ذاك فائـــدة ، وكـــيف نفـــيد وقد اختلط المهم بغير المهم والبديع الحقيقي بالمـــزيف ، فقـــد جعلـــوا كـــل صـــيغة فـــي الأدب لوناً من ألوان الـــبديع ، ولـــم يميزوا بين المحسن وغير المحسن وما من شأنه أن يضيف إلي التعبير جمالا وما لا يضيف . ومن هنا كنا نقرأ في هذه البديعـــيات فنحس أنها شئ غث لا فائدة فيه ولا طائل تحته لكثرة ما تحشد من مصطلحات فارغة لا تحوي أي حسن ولا أي جمال .

✍ عمود الشعر عند نقاد العرب

كثيـــرا مـــا يتردد تعبير عمود الشعر عند نقاد العرب فيقولون عن شـــاعر إنه لم يفارق عمود الشعر بينما يصفون آخر بأنه فارق هذا العمود .

وذلـــك التعبيـــر مـــنهم يدل علي أنهم يقصدون بعمود الشعر تقاليده المتوارثة والمبادئ التي سبق بها الشعراء الأولون واقتفاها من جاء بعدهم ، حتى صارت سنة متبعة وعرفا متوارثاً

ويدلـــنا علـــي أن المـــراد بعمـــود الـــشعر مـــا ذكـــرناه قـــول المرزقي : (..... الواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عـــند العرب ، ليتميز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض مـــن الحديث ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم إقـــدام المـــزيفين علي ما زيفوه ويعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتي السمح علي الأبي الصعب) .[١]

ومـــضي المرزوقـــي يبين هذه التقاليد التي يبني منها عمود الشعر فقـــال (إنهـــم كانـــوا يحاولون شرف المعني وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف – ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثـــرت سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات – والمقاربة في التشبيه ، والـــتحام أجـــزاء النظم والتئامها علي تخير من لذيذ الوزن ومناسبة

---

[١] مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقي صـــ ٨ ، ٩ .

المستعار منه للمستعار له و ومشاكلة اللفظ للمعني وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما – فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها عيار [١]

ويعني المرزوقي بالعيار ما يعرض عليه كل واحد من هذه السبعة فيقبله أو يرفضه

فعيار المعني : أن يعرض علي العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فالعقل إذا هو الحكم الذي يفصل في صحة المعني وخطئه ، فإذا قبله العقل واقتنع به كان مقبولا ، وإلا نقص بمقدار ما فيه من باطل وخطأ ، والعقل الصحيح يحكم علي المعني بعد أن يعرضه علي واقع الحياة حينا ، وعلي معارف العلم حينا آخر .

وعيار اللفظ : الذوق المرهف الذي هذبته الرواية ، وصقلته الثقافة ، فعرف السلس والثقيل ، والمألوف والمهجور ، والدقيق في أداء المعني والبعيد الذي لم يوفق الشاعر في اختياره ليؤدي المعني الذي أراد .

وعيار الإصابة : في الوصف ما أوتيه الأديب من ذكاء وحسن تمييز فبهما يدرك ما هو أشد لصوقا بالشئ ، فيكون من صفاته الأساسية ، وما لا يكون ذا لصوق وامتزاج به ، فلا يكون من الصفات الأساسية وليس المراد بالوصف هنا باب الوصف وحده ، ولكن الشعر كله

---

[١] السابق صـ ٩ .

وصـــف ، فالغـــزل وصف الحبيب والحب ، والرثاء وصف المرثي والآلام الناشئة عن موته والمدح وصف الممدوح ، وهكذا ، فالذكاء وحسن التمييز كفيلان بمعرفة صفات الشئ الجوهرية الحقيقية .

وعـــيار المقاربـــة في التشبيه ، التفطن لما بين الأشياء من صلات وحـــسن تقديـــر هذه الصلات حتى يوقع التشبيه بين أبرزها وأشدها وضـــوحاً ويـــتحقق ذلك عند المرزوقي إذا أوقع التشبيه بين شيئين اشـــتراكهما فـــي الـــصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفـــة ، إلا أن يكـــون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكهـــا لـــه ، لأنـــه حينئذ يدل علي نفسه ، ويحميه من الغموض والالتباس [١]

وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه علي تخير من لذيذ الوزن : الطبع واللـــسان ، فما لم يستثقله الذوق من الأبنية ،ولم يحتبس اللسان في الـــنطق به ، بل استمرا فيه واستسهلاه ، بلا ملال ولا كلال ، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت ، والبيت كالكلمة ، لأن أجزاءه ســـليمة مـــتقاربة وتخيـــر لذيـــذ الوزن يطرب الذوق بحسن إيقاعه واعـــتدال نظمـــه ، كما يطرب الفهم بصواب تركيبه بل لا بأس من الالـــتجاء إلـــي الغناء لاختبار الشعر ، ومعرفة مدي جمال إيقاعه .

وعـــيار الاستعارة ، كعيار التشبيه : الفطنة وحسن التنبه ، وبما أنها

---

[١] السابق نفسه .

مبنـــية علي التشبيه ، ينبغي أن يكون التشبيه في الأصل قريبا حتى يتناسب المشبه والمشبه به ، ثم يحذف أحد الطرفين

وعيار مشاكلة اللفظ للمعني وشدة اقتضائهما للقافية : الدربة الطويلة والمدارســـة الدائمـــة فـــإذا حكمـــا بـــأن اللفـــظ يؤدي المعني تمام الأداء ، ليس فيه جفوة ولا نبو ، ولا زيادة ولا قصور ، وكان اللفظ مقـــسوما علـــي مقاديـــر المعاني قد حمل الأخص للأخص والأخس للأخـــس فهو البرئ من العيب وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر ، يتم بها المعني ، ويستوفي بها كماله وإلا كانت قلقة في مقرها ، مجتلبة لمستغن عنها .

فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبني شعره عليها ، فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر مهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن .

ونـــستطيع أن نجمـــل ما فصله المرزوقي في وصف عمود الشعر ونـــري تلـــك الصفات منها ما يعود إلي اللفظ ، ومنها ما يعود إلي الأسلوب ومنها ما يعود إلي الخيال .

فالـــذي يتطلـــبه عمـــود الشعر في المعني أن يكون شريفاً صحيحاً مـــصيباً ، وفـــي اللفـــظ أن يكون جزلا مشاكلا للمعني المراد وفي الأســـلوب أن يكـــون متلائما موحد النسيج ، متخير الوزن ، يتطلب

لفظـــه ومعـــناه القافـــية ، يـــتم بها أداء المعني ، وفي الخيال قرب التشبيه ، ومناسبة المستعار منه المستعار له .

أما ما يحتاج إليه الأديب ليصل بأدبه إلي هذه الغاية المثلي في الشعر فموهبة فطرية عبر عنها المرزوقي بالطبع ، وذكاء يميز بين الأمور ويحـــسن تقديـــرها ، وذوق يـــدرك مـــا فـــي الأوزان مـــن جمال وعـــيب ، وثقافة أدبية واسعة تعتمد علي الرواية ، لتعرف المستعمل والمهمـــل والدقـــيق من الألفاظ ، والجافي النابي ، وعلي المدارسة والاتصال بالنصوص الأدبية اتصال فهم وتدبر لمنهج الكلام ، حتى يعرف أسباب جماله وعلي طول الدربة والمرانة علي الانتاج وذلك كله تعبير عن النظرة العربية للشعر والشاعر .

وعلي هذا الأساس يعرف مدي التزام الشاعر عمود الشعر ، ومدي مفارقـــته إياه فهذا الشاعر الذي لا يعني بالإصابة فيما يصف فينسب إلـــي الشئ ما ليس له ، ولا يعني بصحة المعني ولا بدقته (وينبغي أن أوجـــه النظـــر إلـــي أن المعني هنا يشمل العاطفة أيضاً وصحة المعنـــي فـــيها معناه صدق الشعور بها) فهذا الشاعر الذي لا يعني بتصوير عاطفة صحيحة ، أو يتجه إلي الصنعة والزخرف المتكلف وإن مـــات المعنـــي في يده وهذا الذي لا يعني بانتقاء ألفاظه بحيث تكون نبيلة نصا في المعني دقيقة في أدائه ومشاكلة له ولا يعني بأن يكون نسج قصيدته موحدا متلائما ، لا يرتفع حيناً وينحط حيناً آخر

ولا يعنـــي بتخيـــر الـــوزن وســـواء أجـــاء زحاف في وزنه أم لم يجـــئ ، ارتكـــب ضـــرورة أم لـــم يـــرتكب ، غمـــض المعني أم اتـــضح ، قـــرب التشبيه أم بعد ظهرت الاستعارة أم خفي فيها وجه الـــشبه ، هـــذا الـــشاعر مفارق عمود الشعر ، بمقدار بعده عن هذه الأصول تكون مفارقته لهذا العمود .

وهؤلاء الشعراء الذين يغوصون علي المعاني ، ويريدون استخراج غريبها ونادرها ، ولا يعنيهم أن توضع هذه المعاني في أي أسلوب وفي أي عبارة ، مفارقون لعمود الشعر مبتعدون عن تقاليده .

وهـــؤلاء الذي يعنيهم أمر الجناس والمطابقة وفنون البديع أكثر مما يعنيهم أمر المعني ووضوحه وصحته ، بل لا يبالون أن يغمض إذا ســـلم لهم فن من فنون المحسنات البديعية هؤلاء كذلك مبتعدون عن عمود الشعر وتقاليده .

والبحتري عند نقاد العرب ممن التزموا عمود الشعر ، ولم يفارقوه ، بيـــنما فـــارق أبو تمام هذا العمود في كثير من شعره الذي عني فيه بأمر المحسنات وهكذا نستطيع أن نحكم علي المتكلف بأنه بعيد عن عمود الشعر وتقاليده الصالحة .

كان النقد في مبدأ الأمر أولياً فطرياً كما سبق أن ذكر ، لا يعتمد إلا علـــي الذوق الخالص ولا يسلك سبيل التحليل والتعليل فكان الرجل يستمع إلي قصيدة من القصائد ، أو إلي بيت أو أبيات منها فيتأثر بها فيصدر عليها حكماً عاماً بالجودة والاستحسان أو القبح والاستهجان ولا يزيد شيئاً علي ذلك وقد عرف هذا اللون من النقد بهذه الطريقة في العصر الجاهلي .

فـــإذا جاء العصر الإسلامي ظل النقد علي ما كان عليه ذاتياً تأثرياً يعـــتمد علـــي الـــسليقة والفطرة ، فإذا مضينا مع الزمن وجدنا النقد يحـــاول أن يـــتجاوز هذه المرحلة التأثرية إلي مرحلة تعليلية تحمل أسباباً وعللاً للأحكام وبهذا الاتجاه بدأ النقد يضع قواعد وأصولا لما يستحسن أو يستقبح من الآثار الأدبية .

بدأ النقد العربي يسلك هذا المنهج علي يد الناقد ابن سلام الجمحي إذا أخـــرج للمكتـــبة العربية كتابه القيم " طبقات فحول الشعراء " الذي ضـــمنه نظرات نقدية جديدة تدل علي بصر وبصيرة بالأثر الأدبي وبالنقد المبني علي ذلك الأثر .

وفـــي كـــتابه استعرض ابن سلام صورة النقد في عصري الجاهلية وصـــدر الإســـلام وهـــي نقـــدات متعلقة باللغة والصياغة والجرس الموسيقي وذلك كالذي أخذوه علي النابغة الذبياني من أنه كان يقوي

فـــي شـــعره [١] ومع أن ابن سلام اعتمد في تصنيفه علي شئ من المـــنهج التاريخـــي عـــندما صنف الشعراء إلي مجموعات جاهلية وإســـلامية ..... الـــخ فإنـــه يقرر ضرورة الخبرة والممارسة والـــتذوق الفنـــي والمران وكل هذه تتعلق بالجوانب الفنية في النقد الأدبي .

يقـــول ابـــن سلام : (للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه العين ومـــنها ما تثقفه الأذن ومنها ما يثقفه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة و ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا وسم ولا صفة ويعرفه الـــناقد عـــند المعاينة فيعرفها بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها [٢] ومـــنها البـــصر بغـــريب النخل ..... وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به) [٣]

ثـــم يخطـــو الـــنقد خطـــوة أخـــري إلي الأمام وذلك علي يد الناقد العـــالم (ابن قتيبة الدينوري) الذي حاول أن يضع قواعد وأصولا

---

[١] أي تختلف حركة الروي في أبياته

[٢] الجهبذة : نقد الزيوف والصحيح من الدنانير والدراهم ، البهرج : الردئ ، الستوق : الزائف ، المفرغ : المصمت الذي لا يسمع لرنينه صوت

٢) طبقات فحول الشعراء صـــــــــ ٦، ٧

لنقد الشعر فله نظرته به في الحكم علي الشعراء فهو يري تقديم من يستحق التقديم وتأخير من يستحق التأخير فليس السبق الزمني عنده موجباً للتقديم والتقدير كما أن التأخر في الزمن ليس موجباً للنكران والتحقير ، وهو بذلك يفصح عن منهجه الذي لا يقلد فيه أحدا فهو لا يجاري من سبقوه في استحسان من استحسنوه ، أو استقباح من استقبحوه يقول ابن قتيبة : (ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره و لا نظرت إلي المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه و لا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ..... فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ..... ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأي قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة علي زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره ..... فكل من أتي بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله و لا حداثة سنه كما أن الرديئ إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه [1] كما نراه يقسم الشعر إلي تقسيمات وهي عنده أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه وضرب حسن

---

[1] الشعر والشعراء : المقدمة صـــــ٢

لفظـــه وحلا وليس تحته طائل ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه وضـــرب تأخـــر لفظه ومعناه ، ثم يضرب الأمثلة لكل نوع ويعلق عليها وينقدها نقداً بعيداً عن التعليل .

– ويأتـــي بعده قدامة بن جعفر فيؤلف كتابه " نقد الشعر " الذي يبين لنا فيه اتجاهه في النقد ولكنه اتجاه جديد علي النقد الأدبي فهو اتجاه فلـسفي منطقـــي علمي وهي محاولة لم تفدنا كثيرا في مجال النقد ، وذلـــك أنـــه حـــاول أن يطبق علي الشعر ونقده هذه الأقيسة العقلية المنطقية الجافة وكتابه " نقد الشعر " حوي ثلاثة أقسام :

الأول : تـناول فـــيه تعـــريف الشعر وبيان حده ، وفصل القول في عناصره الأربعة وهي اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعني

الثاني : فصل فيه قدامة وجوه الحسن في المعاني الشعرية

الثالث : فصل فيه عيوب المعاني .

وأخذ بعد ذلك في تقسيمات وتفريعات لكل قسم من هذه الأقسام .

وقدامـــة في منهجه هذا وفي تفصيلاته متاثر بأرسطو في حديثه عن الـــشعر ومـــن خلالـــه يظهر لنا أطلاعه علي الفلسفه اليونانية التي كانـــت قـــد تـــرجمت في هذا العصر و ومما يؤخذ علي قدامة أنه عـــد " التـــشبيه " غرضا متسقلاً من أغراض الشعر ، والتشبيه إنما يدخل في باب الوصف .

كمـــا أنـــه حـــين عدد أغراضه الشعر اغفل أغراضاً معروفة لدي الشعراء وذلك كالفخر والعتاب والحكمة

وهـــا هـــو ذا الآمـــدي المتوفـــي ســـنه ٣٧١ هـــ وقد أخرج كتابه " الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري " وسار فيه علي مراعاة القيم التعبيرية والمعنوية فقد تناول في نقده الألفاظ والمعاني وتحدث عما يستجاد منها وما يستقبح ويعاب .

ثـــم يـــتحدث عن الشعر فيذكر أن له دعائم أربع هي : جودة الآلة وإصـــابة الغرض وصحة التأليف وتمام الصنعة فإذا استوفي الشاعر هـــذه الدعائم وأضاف إليها معني لطيفا مستغربا فذلك مما يزيد في حسن صنعته وتمام جودتها .

ثـــم عقد فصلا نقديا بين فيه الحاجة إلي الدربة في فن النقد و وقرر أن العلـــم بالشعر لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولا يتعاطاه من ليس مـــن أهلـــه ، وألا يتعرض له إلا من عرف بكثرة النظر في الشعر وطوله الممارسة والارتياض .

ثـــم يتعـــرض الآمدي في كتابه إلي الحديث عن السرقات الشعرية والـــسابق فـــي المعاني والتعبيرات واللاحق منها وهو خلال حديثه عنها وعن الموازنة بين الشعراء كان لا يتوسع في التعليل وإنما هي تعلـــيقات مقتضبة لا توضح أسبابا لا للحسن ولا للقبح وهو بذلك قد ألم ببعض المباحث الداخلة في إطار المنهج التاريخي .

ثم يأتي القاضي علي بن عبد العزيز الجرحاني و وعلي يديه يخطو الـنقد الأدبـي خطوة واسعة علي طريق المنهج الفني ، فله في هذا المجـال نظـرات نقديـة جيدة ، وعنده أن الشعر صناعة وأن هذه الـصناعة لهـا أهلها الذين يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها

ويـري كذلك أن الشئ قد يكون متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ويكون جيدا وثيقا ولا يكون لطيفا رشيقا ومن ثم ينبغي الرجوع في شـأن هذه الصناعة إلي أهلها الخبيرين بها المتمرسين بطول الدربة ودائم الملابسة .

وهـو إذا وازن بـين بعض المعاني أو التعبيرات تجده يبدي أسبابا وعللا لما يستحسن أو يستقبح .

ونـري كـذلك – القاضـي الجرحانـي ينعي علي من يلهج بعيب المتأخرين وأن أحدهم قد ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله .

ويأتـي الأمـام عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ فيقوم بـذلك الدور الذي يجعله بحق الناقد الفذ بين النقاد والبلاغيين ، فقد كـان عملـه يختلف عن عمل من سبقوه ، ذلك أنه حاول أن يضع قـواعد وأصولا فنية للجمال الفني كما حاول أن يضع قواعد نفسية

كمـــا أنـــه حـــين عدد أغراضه الشعر اغفل أغراضاً معروفة لدي الشعراء وذلك كالفخر والعتاب والحكمة

وهـــا هـــو ذا الآمـــدي المتوفـــي سـنه ٣٧١ هـــ وقد أخرج كتابه " الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري " وسار فيه علي مراعاة القيم التعبيرية والمعنوية فقد تناول في نقده الألفاظ والمعاني وتحدث عما يستجاد منها وما يستقبح ويعاب .

ثـــم يـــتحدث عن الشعر فيذكر أن له دعائم أربع هي : جودة الآلة وإصـــابة الغرض وصحة التأليف وتمام الصنعة فإذا استوفي الشاعر هـــذه الدعائم وأضاف إليها معني لطيفا مستغربا فذلك مما يزيد في حسن صنعته وتمام جودتها .

ثـــم عقد فصلا نقديا بين فيه الحاجة إلي الدربة في فن النقد و وقرر أن العلـــم بالشعر لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولا يتعاطاه من ليس مـــن أهلـــه ، وألا يتعرض له إلا من عرف بكثرة النظر في الشعر وطوله الممارسة والارتياض .

ثـــم يتعـــرض الآمدي في كتابه إلي الحديث عن السرقات الشعرية والـــسابق فـــي المعاني والتعبيرات واللاحق منها وهو خلال حديثه عنها وعن الموازنة بين الشعراء كان لا يتوسع في التعليل وإنما هي تعلـــيقات مقتضبة لا توضح أسبابا لا للحسن ولا للقبح وهو بذلك قد ألم ببعض المباحث الداخلة في إطار المنهج التاريخي .

ثم يأتي القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني و وعلي يديه يخطو الـنقد الأدبـي خطوة واسعة علي طريق المنهج الفني ، فله في هذا المجـال نظـرات نقديـة جيدة ، وعنده أن الشعر صناعة وأن هذه الـصناعة لهـا أهلها الذين يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها

ويـري كذلك أن الشئ قد يكون متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ويكون جيدا وثيقا ولا يكون لطيفا رشيقا ومن ثم ينبغي الرجوع في شـأن هذه الصناعة إلي أهلها الخبيرين بها المتمرسين بطول الدربة ودائم الملابسة .

وهـو إذا وازن بـين بعض المعاني أو التعبيرات تجده يبدي أسبابا وعللا لما يستحسن أو يستقبح .

ونـري كـذلك – القاضـي الجرجانـي ينعي علي من يلهج بعيب المتأخرين وأن أحدهم قد ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله .

ويأتـي الأمـام عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ فيقوم بـذلك الدور الذي يجعله بحق الناقد الفذ بين النقاد والبلاغيين ، فقد كـان عملـه يختلف عن عمل من سبقوه ، ذلك أنه حاول أن يضع قـواعد وأصولا فنية للجمال الفني كما حاول أن يضع قواعد نفسية

من النقاد القدامى

١) ابن سلام الجمحي :

هــو أبــو عــبد الله محمــد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البــصري ، مــن أعــلام الأدب والــنقد والرواية في القرن الثالث الهجري .

ولــد ابن سلام الجمحي في البصرة سنة ١٣٩ هــ ، ونشأ في بيت علــم وأدب ، وتــتلمذ علــي أبيه وغيره من أعلام البصرة ، وفي مقدمــتهم : أبو عمرو بن العلاء رائد مدرسة البصرة في الرواية ، وكــان من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة وأحد القراء السبعة الــذين أخــذت عــنهم تــلاوة الذكر الحكيم ، وكان من أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب .

وتــتلمذ كــذلك ابن سلام علي الأصمعي الذي أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها وأخبارها ، وقالوا عنه إنه ثقة عدل .

كما تتلمذ ابن سلام علي يونس بن حبيب النحوي المشهور ، وغيرهم مــا يــربو علــي المائة ، وقد ظل ابن سلام يطلب العلم في مظانه وكــذلك الأدب حتي تم له ذلك وأمضي حياته في خدمته ، وقد توفي في بغداد سنة ٢٣١ هــ أو سنة ٢٣٢ عن عمر فاق التسعين عاماً .

كان ابن سلام متنوع المعارف واسع العلوم ، وكتبه التي ألفها توضح ذلـــك بجـــلاء فقد ألف في الشعر ، وفي الشعراء ، وفي القرآن وفي الأخبار ..... الخ

ومن هذه الكتب :

طبقات فحول الشعراء ، غريب القرآن ، بيوتات العرب ، وكتاب في الملح والأخبار والأشعار ، وكتاب في طبقات الشعر .

- ويعد كتاب " طبقات فحول الشعراء " فتحاً جديداً في مجال الأدب والـــرواية والنقد ، فقد أفاد مؤلفه من جهود معاصريه وآرائهم وغير فـــيها وبـــدل ومحص وهذب وأضاف إليها ما يتعلق بدراسة الشعر ونقده .

- كان ابن سلام يتمتع بروح علمية كبيرة تظهر وتتضح لنا قسماتها مـــن خـــلال دراسة كتابه " طبقات فحول الشعراء " فقد أثار في هذا الكتاب العديد من المسائل والقضايا التي عالجها بدقة ويقظة وإحاطة بما يدل علي تأصل الروح العلمية عنده .

- ومقدمـــة الكتاب حافلة بمسائل النقد وقضاياه ، فقد ذهب ابن سلام أن الـــشعر صناعة وثقافة ، وأن الذي يعرفه ويميز بينه وما يحتويه مـــن جـــوده وإحـــسان ، أو قبح واستهجان ، هم نقاده الخبيرون به القديرون علي تقويمه وإصدار الحكم عليه .[1]

---

[1] طبقات فحول الشعراء – السفر الأول صـــ ٥ ، مطبعة المدني .

- كمـــا عـــرض لنا ألوانا من جهل العلماء بالنقد ومعرفة الشعر . وذكـــر من هؤلاء ابن اسحاق الذي روي شعراً علي ألسنة رجال لم يقولوا الشعر قط كما روي شعراً علي لسان عاد وثمود ، مع أن كل الدلائل تبين لنا أن هذه الأمم البائدة لم يبق أحد يستطيع أن يروي لها أو عنها .

- كمـــا يذكـــر لـــنا ابـــن سلام في مقدمة كتابه ، ضياع الكثير من نـــصوص الـــشعر الجاهلـــي [١] وذلك لعدم انتشار التدوين والكتابة والتقيـــيد ودلـــل علي ذلك بذهاب الكثير من شعر طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وهما من أقدم الشعراء .

كمـــا يذكر أنه لم يكن للعرب من الشعر قبل ذلك إلا الأبيات يقولها الـــرجل في حاجته ، وأن القصائد إنما قصدت ، وطول الشعر علي عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وأول من قصد القصائد هو المهلهل بن ربيعة التغلبي [٢].

- ويعرض ابن سلام لتنقل الشعر في العرب ، وأنه كان في ربيعة ، ثـــم تحول في قيس ، ثم آل تميم ، ويذكر أن حماداً الراوية كان أول من جمع أشعار العرب وروي أحاديثها .

---

[١] السابق صـــ ٢٥ ، ٢٦ .

[٢] السابق صـــ ٣٩ .

وقد عالج كتاب ابن سلام عدداً من القضايا والمسائل النقدية منها :

١) القضية الأولي :

تحقيق النصوص والتحقق من سلامة نسبتها إلي أصحابها :

وهي من أهم القضايا التي أثارها المؤلف ، وهي قضية الانتحال ، أو قضية الشعر الموضوع ومحاولة تحقيق النصوص وتوثيقها ، وتصحيح نسبتها إلي أصحابها،وقد اتخذ ابن سلام لدارسة الشعر ونقده والحكم عليه منهجاً جديداً وهو أن أول ما يجب علي الناقد أو الدارس فعله تحقيق النص الأدبي ونسبته الصحيحة إلي قائله ، وذلك قبل أن يمضي في عمله في التعامل مع النص ، وإلا ذهب جهده هباء وصار منهجه غير قويم ولا سليم .

وقد أرجع بن سلام قضية انتحال الشعر وردها إلي عدة عوامل أهمها :

١- العامل الأول : القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتزيد في مناقبها وذلك لأنهم استقلوا شعر شعرائهم ، وما ضاع منه في الوقائع والأيام فقالوا شعراً علي ألسنة الشعراء ونسبوه إليهم مع أنهم لم ينطقوا به .

٢- العامل الثاني : الرواة الوضاعون غير الموثوق بهم الذين كانوا ينحلون شعر الرجل لغيره وكان من أشهر هؤلاء الرواة الذين جمعوا أشعار العرب وساقوا أيامها " حماد عجرد " المعروف بحماد الراوية

وكان متهماً كثير الوضع ولا يوثق بما يرويه ، فكان ينظم علي لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به وكثر منه ذلك حتي عرف به واشتهر .

٣- **العامـــل الثالث** : أن بعض من دونوا هذا الشعر فيما بعد كانوا من كتاب السير كمحمد بن إسحاق الذي نسب بعض الأشعار إلي عاد وثمـــود من أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ولم تكن له العربية لغة يقـــول ابن سلام : (وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غث منه ابن إسحاق بن يسار وكان من علماء الناس بالسير ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتي بـــه فأحملـــه ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قـــط ، ثم جاوز ذلك إلي عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر)

٤- **العامـــل الرابع** : أن كثيراً من الشعر ضاع بعد مجئ الإسلام ، حـــيث انـــصرف الناس عن روايته وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، فلما كثر الإسلام واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر

وقد قام ابن سلام بهذا الجهد ، فتعقب الشعر وتعرض للموضوع منه والمنـــتحل ، ونـــاقش ذلك مناقشة علمية ، وأخذ يطعن فيه ، وأبطل نسبته إلي من نسب إليهم مستعيناً في ذلك بكافة الأدلة والبراهين .

٢) القضية الثانية :

قــدرة الــناقد علـــي تميز جيد الشعر من رديئه ، وعدته في ذلك وهي من القضايا التي شغل بها ابن سلام ، وعالجها في كتابه ، فقد وجـــدناه يقـــرر أن الشعر صناعة يعرفها أهل البصر بالشعر ، وأن الخبـــرة الفنية والثقافة الأدبية والإلمام بفنون الشعر أمور ينبغي أن تتوافر في الناقد الأدبي .

وتتحقق هذه الأمور تبعاً للتجربة والممارسة الدائمة وكثرة المحفوظ والمـــدروس من الشعر إذن فهو يرفض الاعتماد علي الذوق وحده ، ويري أنه ليس كل فرد أهلاً للتمييز والنقد والحكم .

كمـــا يـــري ابن سلام أن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، وينبغـــي عليـــنا أن نترك الحكم للشعر أو عليه للخبير المتمرس ينقد ويفسر ويحلل ويميز جيده من رديئه .

قـــال ابن سلام : (الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصـــناف العلم والصناعات ، منها ما يثقفه الإنسان ..... يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له ، بلا صفة ينتهي إليها ، ولا علـــم يوقـــف عليه ، وإن كثرة المدارسة لتعدي علي العلم ، فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به) .

القضية الثالثة :

تصنيف الشعراء في طبقات

في هذه القضية يتحدث ابن سلام عن الشعراء ويصنفهم في طبقات : فهناك طبقات الجاهليين وهناك طبقات الإسلاميين وصنف الجاهليين في عشر طبقات منهم أهل الوبر وأهل المدر ومنهم أهل البدو والحضر .

كما صنف الإسلاميين في عشر طبقات أيضا منهم طبقة فحول الإسلام ..... الخ .

وهو في تصنيفه للجاهليين نراه يقرر أثر البيئة وأثر الزمان في تكوين الملكات الشعرية ، كما أخذ يفاضل بين الشعراء علي أسس منها : كثرة النتاج الشعري وجودته وتعدد أغراضه والزمان والمكان [١]

كما نراه يعلل قلة الشعر في مكان ، وكثرته في آخر تعليلا مقبولاً إذا يقول : (وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج بالمدينة ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا) [٢]

---

[١] نصوص نقدية / محمد السعدي فرهود صـ ٦،٧ .

[٢] السابق صـ ٢١٧ .

وقـد أورد ابن سلام في كتابه الكثير من الآراء والأحكام المختلفة ؛ ونـراه يـذهب إلي أن امرأ القيس أسبق العرب إلي أشياء ابتدعها استحـسنتها العـرب واتبعـته فيها الشعراء منها استيقاف صحبه ، والـبكاء علي الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ..... وإجادة التشبيه) [1]

---

[1] طبقات فحول الشعراء صـ ٤٦ .

- **كتاب المعارف** : وهو كتاب في التاريخ تحدث فيه عن تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام والطوفان ، وسير الأنبياء والرسل ، كما تحدث عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) وصحابته وتاريخ الخلفاء والدولة الأموية والفرق التي قامت في عهدها .

- **كتاب أدب الكاتب** : وقد دفعه إلي تأليف هذا الكتاب ما لاحظه من أن أغلب الأدباء والكتاب في عصره قد ابتعدوا عن اللغة العربية الأصلية ، فهو يحاول – كما مر في مقدمة الكتاب – أن يقوم ألسنة الكتاب وأيديهم في رسم الكلمات ، وقد جعل هذا الكتاب أربعة أقسام .

الأول : في المعرفة وتوجيه الألفاظ والعبارات إلي استعمالها الصحيح .

الثاني : في إقامة حروف " الهجاء " وما يتصل به من تصويب الكلمة .

الثالث : في تقويم اللسان .

الرابع : في أبنية الأفعال والأسماء ومعانيها .

- **كتاب الشعر والشعراء** : ويتكون هذا الكتاب من قسمين رئيسيين :

١) **القسم الأول** : المقدمة وفيها يتحدث عن الشعر وأغراضه وأضربه وألفاظه وقواعد نقده ، وقد أطال ابن قتيبة في هذه المقدمة

بمـــا لـــم نعهـــده فـــي مقدمات الكتب ، وهي تمثل مذهب ابن قتيبة واتجاهه في النقد

٢) القـــسم الثاني : تحدث فيه عن تراجم الشعراء ، وقد ترجم لعدد من الشعراء منذ العصر الجاهلي حتي العصر العباسي الأول .

وقـــد اشتملت مقدمة هذا الكتاب علي العديد من الآراء التي كان لها أثرها وخطرها في النقد الأدبي ، ومن تلك الآراء ما يلي :

أولاً : اعتمد ابن قتيبة قياساً للمفاضلة بين الشعراء والحكم عليهم هو جـــودة الـــشعر بصرف النظر عن كون الشاعر قديماً أو حديثاً فهو يـــرفض التقلـــيل مـــن شأن الشاعر المحدث لحداثته وكذلك يرفض تفضيل الشاعر لقدمه .

ويـــصدر ابـــن قتيبة في ذلك عن وجهة نظر مستقلة ، لم تتأثر بما عرف عن النقاد من تفضيل القديم لقدمه والزراية بالحديث لحداثته .

يقول الدكتور / مندور :

(الواقـــع أن ابـــن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلي المعتقدات الأدبية التـــي كانـــت منتـــشرة في عصره ..... فهو لا يأخذ بفكرة الطـــبقات كما أخذ ابن سلام وهذا واضح منذ الصفحات الأولي من كـــتابه ..... ولم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بمقاييسه كمـــبدأ الكـــم مثلاً ، فهو يقول : (ولا أحسب أحداً من أهل التمييز

- **كتاب المعارف** : وهو كتاب في التاريخ تحدث فيه عن تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام والطوفان ، وسير الأنبياء والرسل ، كما تحدث عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) وصحابته وتاريخ الخلفاء والدولة الأموية والفرق التي قامت في عهدها .

- **كتاب أدب الكاتب** : وقد دفعه إلي تأليف هذا الكتاب ما لاحظه من أن أغلب الأدباء والكتاب في عصره قد ابتعدوا عن اللغة العربية الأصلية ، فهو يحاول – كما مر في مقدمة الكتاب – أن يقوم ألسنة الكتاب وأيديهم في رسم الكلمات ، وقد جعل هذا الكتاب أربعة أقسام .

الأول : في المعرفة وتوجيه الألفاظ والعبارات إلي استعمالها الصحيح .

الثاني : في إقامة حروف " الهجاء " وما يتصل به من تصويب الكلمة .

الثالث : في تقويم اللسان .

الرابع : في أبنية الأفعال والأسماء ومعانيها .

- **كتاب الشعر والشعراء** : ويتكون هذا الكتاب من قسمين رئيسيين :

١) **القسم الأول** : المقدمة وفيها يتحدث عن الشعر وأغراضه وأضربه وألفاظه وقواعد نقده ، وقد أطال ابن قتيبة في هذه المقدمة

بمـــا لـــم نعهـــده فـــي مقدمات الكتب ، وهي تمثل مذهب ابن قتيبة واتجاهه في النقد

٢) **القـــسم الثاني** : تحدث فيه عن تراجم الشعراء ، وقد ترجم لعدد من الشعراء منذ العصر الجاهلي حتي العصر العباسي الأول .

وقـــد اشتملت مقدمة هذا الكتاب علي العديد من الآراء التي كان لها أثرها وخطرها في النقد الأدبي ، ومن تلك الآراء ما يلي :

أولاً : اعتمد ابن قتيبة قياساً للمفاضلة بين الشعراء والحكم عليهم هو جـــودة الـــشعر بصرف النظر عن كون الشاعر قديماً أو حديثاً فهو يـــرفض التقلـــيل مـــن شأن الشاعر المحدث لحداثته وكذلك يرفض تفضيل الشاعر لقدمه .

ويـــصدر ابـــن قتيبة في ذلك عن وجهة نظر مستقلة ، لم تتأثر بما عرف عن النقاد من تفضيل القديم لقدمه والزراية بالحديث لحداثته .

يقول الدكتور / مندور :

(الواقـــع أن ابـــن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلي المعتقدات الأدبية التـــي كانـــت منتـــشرة في عصره ..... فهو لا يأخذ بفكرة الطـــبقات كما أخذ ابن سلام وهذا واضح منذ الصفحات الأولي من كـــتابه ..... ولم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بمقاييسه كمـــبدأ الكـــم مثلاً ، فهو يقول : (ولا أحسب أحداً من أهل التمييز

والنظـــر نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحداً مـــن المتقدمين المكثرين علي أحد إلا بأن يري الجيد في شعره أكثر مـــن الجيد في شعر غيره) [1] وهذا تفكير سليم ونظر صائب ولكن ثـــورة ابـــن قتيـــبة علي المقلدين من أنصار القديم وأخذه برأيه هو مـــستقلا بـــه ، إنمـــا كانت ثورة صادرة عن نظر فلسفي أكثر من صـــدروها عـــن حكـــم اســـتقراه من طبيعة الشعر القديم والحديث ونـــسبة الجـــودة في كل منهما أو قر بهما من مثل أعلي في الشعر فهويقـــول : (ولـــم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ســـبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلي المتقدم مـــنهم بعين الجلالة لتقدمه وإلي المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل بعـــين العدل علي الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه ، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأي قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة علي زمـــن دون زمـــن ، ولا خـــص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مـــشتركاً مقـــسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عـــصره ،وكـــل شـــرف خارجياً في أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطـــل وأمـــثالهم يعـــدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء

---

[1] الشعر والشعراء صـــ ١٩ .

يقــول : (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتي لقد هممت بروايته) ثم صـــار هؤلاء قدماء عندما بعد العهد منهم ،وكذلك يكون من بعدهم لمـــن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هيثم وأشباههم فكل من أتـــي بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولاحداثة سنه ، كما أن الردئ إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه).[١]

ثانـــياً : الطبع والتكلف في الشعر وتحدث فيه ابن قتيبة عن الشاعر المطـــبوع والشاعر المصنوع ، وعنده أن التكلف وليس الصنعة هو المقابـــل للطبع ، واستعماله لهذه المقابلة دون المشهور بين النقاد أن يقولـــوا " الطـــبع والصنعة " يكشف عن ذكائه وفطنته ودقة اختيار الكلمات . [٢]

يقول ابن قتيبة : (ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، والمطبوع من الـــشعراء مـــن سمح بالشعر واقتدر علي القوافي ، وأراك في صدر بيـــته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت علي شعره رونق الطبع ووشـــي الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر [٣] والمتكلف هو الـــذي قـــوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر

---

[١] النقد المنهجي عند العرب / د محمد مندور صـــ ٢٣ ، ٢٤ .

[٢] نصوص نقدية / محمد السعدي فرهود صـــ ٢٦ .

[٣] التزحر : إخراج الصوت أو النفس مصحوباً بأنين عند وقوع شدة أو عمل .

كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأمثالهما عبـيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول : " خير الحولي المنقح المحك " [١]

ويقول بعد ذلك : " التكلف في الشعر أيضا أن نري البيت فيه مقروناً بغير جاره ومضموناً إلي غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الـشعراء : أنـا أشعر منك ، قال : ولم ذلك ؟ قال لأني أقول البيت وأخاه ولأنك تقول البيت وابن عمه "

ثالـثاً : علل ابن قتيبة لبدء الشعراء قصائدهم بالغزل والوقوف علي الأطـلال وذكر الديار والدمن والآثار تعليلاً مقبولا إذ بني ذلك علي أساس نفسي يقول : (سمعت أهل الأدب يذكرون أن مقصد القصيد، إنمـا ابـتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا وخاطب الـربع ، واسـتوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عـنها ..... ثم وصل ذلك بالنسيب فكشا شدة الوجد ، وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليـستعدي إصـغاء الأسماع ، لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلـوب ، لمـا جعـل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النـساء ، فلـيس يكـاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضـاربا فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا استوثق من الإصغاء إليه

---

[١] الشعر والشعراء صـ ١٢ .

والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسري الليل وحر الهجيرة وإنضاء الراحلة والبعير ، فلما علم أنه أوجب علي صاحبه حق الرجاء ..... بدأ في المديح فبعثه علي المكافأة وهزه للسماح وفضله علي الأشياء)

رابعاً : قسم ابن قتيبة الشعر أربعة أضرب

١) ضرب حسن لفظه وجاد معناه .

٢) ضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد وراءه فائدة .

٣) ضرب حسن معناه ، وقصرت ألفاظه عنه .

٤) ضرب تأخر لفظه ومعناه .

مثل : للنوع الأول بقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلي قليل تقنع

وللنوع الثاني ، بقول الشاعر :

ولما قضينا من مني كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

شدت علي حدب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ومثل للنوع الثالث بقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وللنوع الرابع يقول الخليل بن أحمد :

إن الخليـط تصـدع فطر بدائـك أوقع
لولا جـوار حسـان حور المدامع أربع
أم البنيـن وأسـمـا ء والرباب وبوزع
لقلت للراحل : ارحل إذا بدا لـك أودع

وتقسيم الشعر بهذه الطريقة هو تقسيم فلسفي منطقي علمي ولا ينبغي أن يخـضع الشعر ونقده للفلسفة أو المنطق أو للتقسيمات الرياضية لأن هـذه التقـسيمات تخـرج بـالأدب عن كونه فناً إنسانياً يتغني بالمشاعر عماده الذوق والإحساس إلي حسابات وتقنيات علمية تبعد به عن مجال الانفعال والوجدان .

ولذلك يخرج ابن قتيبة عن هذا التقسيم الرباعي السابق إلي القول بأن الجمـال في الشعر الذي يدعو إلي اختياره وتفضيله وحفظه لا يعود إلي ما فيه من جودة للفظ والمعني فقط ، إنما إلي أمور أخري ردها إلي إصابة التشبيه ، أو خفة الروي أو غرابة المعني ـطرافته أو نبل الشاعر القائل ومنزلته .

وأخيـرا عـن ابن سلام وابن قتيبة وغيرهما يقول الدكتور / محمد مـندور : (كانـوا مؤرخـي أدب أكثر منهم نقاداً وهم إن عرضوا لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة لم يكن في نظرتهم استقصاء

ولا دارســة للنــصوص والنقد كما قلنا ليس تلك التعميمات التي لا طائل تحتها ، وإنما هو تحليل النصوص والتمييز بين الأساليب) [١]

---

[١] النقد المنهجي عند العرب صـــ٤٩ والناشر نهضة مصر .

(٣) قدامة بن جعفر

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، ولد في بغداد سنة ٢٧٥ هـ ونشأ في بيت علم وأدب إذ كان والده من كتاب الدولة العباسية وكان والده يدين بالنصرانية في حين أسلم ابنه قدامة علي يد الخليفة العباسي المكتفي بالله ، وقد هيأ له استعداده في صنعة الكتابة واتصاله بالخليفة الالتحاق بديوان الخلافة في عاصمة الدولة في بغداد ، وصار أحد كتاب الديوان ، الذين يشار إليهم بالبنان ، وتوفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ وقد ترك قدامة مصنفات عدة تشهد له بالعلم والفضل والبراعة عددها ابن النديم في كتابه " الفهرست " من تلك المصنفات :

كتاب نقد الشعر - كتاب الخراج - كتاب صنعة الكتابة كتاب درياق الفكر - كتاب السياسة - كتاب صناعة الجدل كتاب الرد علي ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام - كتاب نزهة القلوب - كتاب زاد المسافر .

وله كتاب طبع في القاهرة باسم " جواهر الألفاظ " سنة ١٩٣٢ ، واسمه الأصلي " الألفاظ "

وقد فصل قدامة في كتابة " نقد الشعر " مذهبه النقدي

وطـــريقته فـــي هذا الفن وهي طريقة ظهر فيها أثر تشبعه بالمنطق والفلسفة ، فقد قسم كتابه إلي ثلاثة فصول :

الأول : يعرف فيه الشعر ويرسم خطة الكتاب .

الثاني : يذكر فيه محسنات الشعر في مفرداته ومركباته .

الثالث : يذكر فيه عيوب الشعر في مفرداته ومركباته .

وفـــي القـــسم الأول يتـــناول قدامة تعريف الشعر فيقول : إنه قول موزون مقفي يدل علي معني .

ثـــم يـــضع المؤلف " قدامة " خطة الكتاب فيقول إن عناصر الشعر أربعة :

١- اللفظ ٢- الوزن ٣- القافية ٤- المعني

وهـــذا كله موجود في تعريفه للشعر ، فالقول هو اللفظ ، والموزون هـــو الوزن ، والمقفي هو القافية ، والدال علي معني هو المعني ثم يأخذ في بيان صفات هذه العناصر فيبدأ بالأربعة المفردات

١) فنعت اللفظ بأن يكون سهل المخارج من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة .

٢) ونعت الوزن بأن يكون سهل العروض .

٣) ونعت القوافي بأن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج .

٤) وأخيرا ينتهي إلي المعاني ، وهنا يري جودة المعني في أن يكون موجهاً للغرض المقصود غير عاد عن الأمر المطلوب .

ولمـــا كانـــت المعاني لا عداد لها فإن قدامة يردها كلها إلي المديح والهجاء ، والنسيب والمراثي ، والوصف والتشبيه .

- ثـــم يأخـــذ عن الحديث عن هذه الأغراض المختلفة فيتحدث عن المدح مجيزاً فيه المبالغة مؤكدا أنها من جمال الشعر ، ويرجع المدح إلي الإشادة بصفات أربع هي :

العقـــل ، والـــشجاعة ، والعدل ، والعفة ، ولكل من هذه أقسام فمن أقـــسام العقـــل : ثقافة المعرفة ، والحياء والبيان والسياسة و الكفاية والـــصدع بالحجة والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجـــري مجـــراه ومـــن أقسام العفة ، القناعة وقلة الشره ، وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجري مجراه .

ومن أقسام الشجاعة : الحماية والدفاع والأخذ بالثأر .... الخ

ومـــن أقـــسام العـــدل والسماحة ومن أنواعها التبرع بالنائل وإجابة السائل وقري الأضياف وما جانس ذلك .

ثـــم ينـــتقل مـــن المدح إلي الهجاء ، ثم إلي الرثاء ، ثم يتحدث عن التشبيه ثم الوصف في تقسيمات كثيرة مملة سمجة فلسفية أكثر منها نقديـــة وبعد أن يفرغ من الكلام علي المفردات يأخذ في الحديث عن المركبات وهي :

١) ائتلاف اللفظ مع المعني

٢) ائتلاف اللفظ مع الوزن

٣) ائتلاف المعني مع الوزن

٤) ائتلاف المعني مع القافية

وقبل أن ينتقل إلي الحديث عن المركبات الأربع السابقة يورد ما يعم جميع المعاني الشعرية من محسنات وهو يحصيها في سبعة أوجه

١) التقسيم ٢) صحة المقابلة ٣) صحة التفسير ٤) التتميم ٥) المبالغة ٦) التكافؤ ٧) الالتفات..

ثم إذا فرغ من ذكر محاسن المفردات والمركبات يأخذ في ذكر معايب كل فيذكر عيوب اللفظ والوزن والقافية والمعاني بأنواعها ، ثم يفصل بين المفردات والمركبات بذكر العيوب العامة للمعاني ... الخ .

ويبدو أن قدامة لم ينل إعجاب كثير من النقاد نظراً لطريقته المنطقية الفلسفية في تقسيمات الأشياء ولتأثره الشديد بالفلاسفة من أمثال أرسطو ولنظرته الضيقة في معالجة الأشياء كل بمفرده لا معالجة الأشياء كوحدة .

وعنه يقول د/ مندور : (أما قدامة فعقليته شكلية صرفة ، وهو لا يبدأ بالنظر في الشعر بل يكون أولاً هيكلاً لدارسته ويحدد تقاسيمه أو إن شئت فقل إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب ، ثم يأخذ في ملء أدراجها [١] ثم يقول عنه بعد التقسيمات الكثيرة والتفريعات

---

[١] النقد المهجي عند العرب صـ٦٨ .

الأكثر : (وفي هذا الكلام الطويل الممل ما يدل علي طريقة قدامة في نقد الشعر وبعده عما ادعاه فهذه فلسفة أرسطاليسية ومزيج من المنطق والأخلاق المعروفة عند المعلم الأول .... وإذن فمحاولة قدامة ظلت شكلية عميقة ، وهي لم تدخل يوماً ما في تيار النقد العربي ولئن كان النقاد لم يجهلوه بدليل ورود اسمه غير مرة في كتبهم ، فإنهم لم يكادوا يتأثرون به ، إنما تأثروا بكتاب البديع لابن المعتز) [١]

---

[١] السابق صـــ ٧٠ وما بعدها

(٤) الآمـــدي

هــو أبــو القاسم الحسن بن بشر بن يحيي الآمدي ، ولد في البصرة ونــشأ بها ، وقصد بغداد وهو في سن الشباب ، اختلف إلي مجالس العلمــاء يتلقي عنهم فنون العلم في اللغة والنحو والأدب وغير ذلك حتى حصل علوم زمانه وتتلمذ علي الأخفش والزجاج وابن السراج وابــن دريــد ونفطــويه ، وحين تمت له ملكة البيان التحق بكتابة الــدواوين فكتب في بغداد لهارون بن محمد الضبي ثم عاد بعد حين إلــي البصرة حيث كتب لأحمد بن الحسن بن المثني ، ولأخيه طلحة ابن الحسن ثم عمل كاتبا للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد الهاشمي ولأخــيه القاضــي أبــي الحسن بن عبد الواحد واشتهر بذلك حتي لقب " كاتب بني عبد الواحد "

بــرزت مكانــة الآمــدي في ميدان الأدب وطارت شهرته فيه حتى انتهت إليه رواية الشعر والأخبار في آخر عمره وقد ألف كتباً كثيرة فــي اللغــة والأدب والــنقد وكان فوق ذلك شاعرا مجيداً رويت له مقطوعات شعرية كثيرة وكان حسن الطبع جيد الصنعة وكان عالماً فاضــلاً ولكــنه كــان تمتاماً وقد لزم بيته في آخر أيامه حتي توفي بالبصرة ٣٧٠ هـــ أو ٣٧١ هـ

وللآمدي كتب كثيرة في الأدب واللغة والنقد منها :

- المختلف والمؤلف في أسماء الشعراء
- كتاب فعلت وأفعلت ، ولم يصنف مثل هذا الكتاب
- كتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ
- كتاب تفضيل شعر امرئ القيس علي شعر الجاهليين
- كتاب نثر المنظوم
- كتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر في " نقد الشعر "
- كتاب معاني شعر البحتري
- كتاب الرد علي ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام
- كتاب الأضداد
- ديوان شعر يقع في حوالي مائة ورقة
- الموازنة بين الطائيين " أبي تمام والبحتري "

وهذه الكتب علي كثرتها لم يطبع منها إلا كتابان هما المختلف والمؤتلف من أسماء الشعراء وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري وهذا الأخير يشهد للآمدي بسعة واستقصاء اطلاعه علي دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام وكذلك دواوين الشعراء المحدثين كما يشهد له بسعة اطلاعه علي أراء من سبقوه من أعلام اللغة والأدب كابن سلام الجمحي وأبي عبيدة وابن المعتز ، وقدامه

وبشر بن تميم وابن أبي طاهر ومحمد بن العلاء السجستاني وغيرهم .

وقسم الآمدي كتابه " الموازنة " إلي خمسة أقسام كل قسم يسمي جزءاً يقول د / مندور في الفرق بين الآمدي ومن سبقوه كابن سلام وغيره من حيث المذهب : (وأما الآمدي فوجهته وجهة أخري فهو يبدأ " الموازنة " بين البحتري وأبي تمام بأن يورد حجج أنصار كل شاعر وأسباب تفضيلهم له ، ثم يأخذ في دارسة سرقات أبي تمام وأخطائه وعيوبه البلاغية ويفعل مثل ذلك مع البحتري مورداً سرقاته خصوصا سرقاته من أبي تمام ثم أخطاءه وعيوبه ، أخيراً ينتهي إلي الموازنة التفصيلية بين ما قاله كل منهما في كل معني من معاني الشعر) .[١]

أذن من خلال نص د/ مندور تكون أجزاء الكتاب كالآتي :

الجزء الأول : يذكر فيه الآمدي أراء النقاد في شعر أبي تمام والبحتري ويستقصي رأي المتعصبين لهذا أو ذاك ثم يحصي سرقات أبي تمام الشعرية

والجزء الثاني : يذكر فيه معانيهما في كل معني شعري من المعاني والألفاظ والأساليب .

---

[١] النقد المنهجي عند العرب صـ ٩٩ .

والجـــزء الـــثالث : يتـــناول فيه قبح استعارات أبي تمام ومستهجن جناسه ومستكره طباقه [1] وما ورد في شعره من سوء النظم وتعقيد التـــركيب ، ووحـــشي الألفـــاظ مما خلا من بهاء الرونق ، وعذوبة المـــسمع ومما حمل التعسف علي ديباجته ، ثم يذكر ما وقع فيه أبو تمام من كثرة الزحافات التي أثرت علي موسيقي أوزانه الشعرية .

والجـــزء الرابع : يحلل فيه بإيجاز ما أخطأ فيه البحتري مكتفياً من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفي الكثير منها عنه .

والجـــزء الخامس : يوازن فيه بين الشاعرين في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرهما ويبين أيهما أشعر في ذلك المعني بعينه ويبدأ تلـــك المـــوازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر ، ويذهب إلي أن أهـــل الحذاقـــة بكل علم وصناعة يفضلون من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتـــزاج وأن لهـــذا الميدان رجاله من عنوا بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له ، وهو في هذا الرأي متأثر بابن ســـلام الجمحـــي ومحتذ حذوه يقول : (فمن سبيل من عرف بكثرة النظـــر فـــي الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له أن يقضي له بـــالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه مـــا يقوله ويعمل علي تمثله ولا ينازع في شيء من ذلك إذ كان من

---

[1] الموازنة صـــ ١١٢ مطبعة محمد علي صبيح .

الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا يـنازعهم إلا مـن كـان مـثلهم نظـرا في الخبرة وطول الدربة والملابسة) [١]

ويظهر تأثر الآمدي بابن سلام واضحاً حيث يذهب إلي أن نقد الشعر والتـصدي للحكم له علي ما سواه لا يكون إلا لمن هو أعلم بألفاظه واسـتواء نظمه وصحة سبكه ووضع الكلام منه في مواضعه وكثرة مائه ورونقه ، إذ كان الشعر لا يحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع هذه الخلال فيه .

ويبدو أن الآمدي لم يكن ينقصه شيئ من أدوات الناقد المحترف فهو رجـل منصف دارس محقق ، لا يقبل شيئاً بغير بينة ولا يقدم حكما بغير دليل ، وأما وسائله فهي المعرفة ثم الذوق .

(وهو فيما يبدو لم يكن يجهل شيئاً لا من علوم اللغة العربية وآدابها التقلـيدية فحـسب بل ولا من العلوم الفلسفية المستحدثة ، وإن تكن العلوم لم تبهره ولا ضللت أحكامه عن الأدب والشعر) [٢]

ومهما يكن فإن الآمدي في كتابه " الموازنة " كان ناقداً حاذقاً محيطا بكـل أسرار اللغة ، ودقائق البيان ، فهو حين ينقد البيت من الشعر عند أبي تمام أو البحتري ترى عنده دقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع

---

[١] الموازنة صـ ٣٤٥ .

[٢] النقد المنهجي صـ ١١٩ .

ورســـوخ العلـــم ما يسدد خطاه ، وأبحاثه التي حفل بها كتابه ، ولا يمنعـــنا ذلـــك من أن نقول : إن الآمدي قد استفاد بأبحاث وآراء من سبق من النقاد العلماء كابن سلام وابن المعتز وقدامة وغيرهم .

(٥) القاضي الجرجاني

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني ولد في جرجان سنة ٢٩٠ هـ ونشأ بها وكانت موطناً من مواطن الثقافة الإسلامية في بلاد الفرس واشتهر بلقب القاضي .

كانت الدولة الإسلامية في ذلك العهد بأمصارها وحواضرها تزخر بالعلم والعلماء حتى وصلت إلي قمة نضجها العلمي ، فسلك القاضي الجرجاني السبيل التي كان يسلكها الشباب في هذه البيئات العلمية الحافلة وأخذ في دراسة علوم الدين واللغة والأدب ، وأخذ يجوب الأرض ويتنقل في البلدان فزار الشام والعراق والحجاز ، ولقي مشايخ وعلماء عصره واقتبس الكثير من العلوم والمعارف والآداب حتى صار علماً وإماما .

وللقاضي الجرجاني عدة تصانيف ومؤلفات من أهمها

١) الوساطة بين المتنبي وخصومه

٢) تفسير القرآن المجيد

٣) تهذيب التاريخ

٤) كتاب في الوكالة وضع فيه أربعة آلاف مسألة

ولم يوجد من هذه الكتب إلا " الوساطة " والباقي لسوء الحظ مفقود وكل ما نعلمه عنها هو ما أورده صاحب كتاب " اليتيمة " عن تهذيب التاريخ أنه تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن

التـــصرف ، فـــي الانتقادات ويورد الثعالبي فصلين من هذا الكتاب كأنموذج لتأليف الجرجاني في التاريخ .

وقـــد اشـــتهر القاضي بالفقه وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء وكـــان لنـــضج ثقافته الدينية أثر كبير في توطيد الصلات بينه وبين الـــصاحب بن عباد ، فاشتد اختصاصه به وحل منه محلاً بعيدا في رفعـــته ، وكـــان القاضـــي شاعرا وكاتبا مترسلاً وناقد خبيرا تبادل المـــدح مـــع الـــصاحب بـــن عباد وعرف له الصاحب فضله فولاه قـــضاء " الري " وكان بلاط الصاحب محط رحال العلماء والشعراء والأدباء وأبناء الفضل وفرسان الشعر ونجوم الأرض إلا أن القاضي الجرجانـــي كـــان آثـــرهم عـــنده وأقربهم إليه وذلك لعلمه وفضله ومكانـــته وعلـــو منـــزلته وشـــرف نفـــسه ومـــن ثم فقد رفعه إلي منـــصب " قاضي القضاة " وظل في هذا المنصب إلي أن توفي في الـــري ســـنة ٣٩٢ هـــ وحمـــل تابـــوته إلـــي جرجان فدفن في حفل مهيب .

إلا أن ابـــن خلكان صاحب الوفيات يقول : كان ذلك سنة ٣٦٦ هـــ وعمره ٧٦ عاماً

ويعد كتاب " الوساطة " من الكتب القيمة في ميدان الأدب والنقد فقد تـــناول الجرجانـــي كثيـــرا من المشكلات الأدبية والنقدية وعرضها عرضـــاً جيدا ممتعا أملاه الذوق والطبع والوجدان ، ونلمح في كتابة

الجرجاني فهمه للشعر وتذوقه له ، وبراعته في مجال النقد وقد كـ للوســاطة أثرها الكبير في هذا المجال ويعدها الباحثون من القدامي وكذلك المعاصرين من أروع مؤلفات القاضـي الجرجاني .

أما منهجه النقدي : فقد سار الجرجاني في وساطته علي منهج سديد في نقده فهو يعرض ما أحسن أو أساء فيه الشاعر ثم يفاضل ويوازن بينه وبين غيره من الشعراء في المعني نفسه وهو يهتدي في أحكامه التـــي يصدرها ونقداته التي يوجهها إلي الذوق المطبوع الذي هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفته الدربة والممارسة والمران فيقول :

(ومــلاك الأمــر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع ،وتجنب الحمل عليه والعنف به ، لست أعني بهذا كــل طبع بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية ، وجلته الفطــنة وألهــم الفــصل بــين الردئ والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبح) [1]

ونــراه يعيب علي النقاد وأهل الأدب موقفهم من أبي الطيب المتنبي فهــم ما بين مطنب في تقريظه ، يشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويمــيل علي من عابه بالزراية والتقصير ، وعائب يروم إزالته عن رتبته ولا يسلم له بفضله ، ويري فيه ذلك الموقف المجافي للصواب

---

[1] والوساطة صـ ٢٥ .

البعيد عن النهج السليم في الحكم علي شاعرية هذا الشاعر وهو في الوقت نفسه ظلم للأدب وظلم في حق المتنبي يقول :

(ومـــا زلـــت أري أهـــل الأدب في أبي الطيب بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع إليه بجملته ... يتلقي مناقبه إذا ذكـــرت بالتعظيم ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم) ويميل علي مـــن عابـــه بالـــزراية والتقـــصير ويتناول من ينقضه بالاستحقار والتجهيل .... (وعائب يروم إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، يحـــاول حطه في منزلة بوأه إياها أدبه فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته .

وكـــلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وكما أن الانتصار جانب مـــن العدل لا يسده الاعتذار فكذلك الاعتذار جانب هو أولي به من الانتصار ، ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين تفريط المقصر وإســـراف المفـــرط وقـــد جعـــل الله لكـــل شئ قدرا وأقام بين كل حـــديث فـــضلا وإذا كانـــت الخلقـــة مبنـــية علي السهو وممزوجة بالنـــسيان فاستـــسقاط من عز حاله حيف ، والتحامل علي من وجه إليه ظلم) [1] .

ثم يتحدث القاضي الجرجاني عن ميزان النقد عند العرب وأنه يرتكز علـــي عناصـــر الـــشعر : من شرف المعني وصحته وجزالة اللفظ

---

[1] الوساطة صـــ ٣ ، ٤

واســتقامته وإصــابة الغرض دون الاهتمام بالصنعة والجري وراء المحسنات البديعية فيقول : (وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فــي الجــودة والحــسن بــشرف المعنــي وصحته ، وجزالة اللفظ واســتقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغــزر ولمــن كثــرت ســوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعبأ بالتجنــيس والمطابقــة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لهُ عمود الشعر ونظام القريض)

ومن ثم فهو يدعو الشعراء المحدثين إلي اختيار الألفاظ الرقيقة العذبة التي تسمو علي الساقط السوقي ، وتنزل عن البدوي الوحشي منها ، وإلــي تنــزيل الجــزالة والرقة منازلهما ، بحسب المعني والغرض والموضــوع فلا يكن غزله كافتخاره ولا مديحه كوعيده ، لا هزله بمنزلة جده و لا تعريضه مثل تصريحه بل يرتب كلا مرتبته ويوفيه حقه وسواء في ذلك الشعراء والكتاب فيقول :

(ولــيس مــا رســمته لك في هذا الباب بمقصور علي الشعر دون الكــتابة ولا بمختص بالشعر دون النثر بل يجب أن يكون كتابك في الفــتح أو الوعــيد خــلاف كــتابك في التشوق ، والتهنئة واقتضاء المواصــلة ، وخطابــك إذا حــذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت) [1]

---

[1] الوساطة صـ ٢٣ وما بعدها

ثـم يعـود القاضـي إلي الحديث عن خصوم المتنبي وأنهم افترقوا فـرقتين فرقة تعاديه وتنقصه لأنها تعم بالنقص كل محدث وأخري تخاصمه وحده من بين الشعراء المحدثين فتضع من منزلته من حيث تـرفع من شأن أبي نواس ومسلم وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وإضـرابهم ونـراه ينعـي علـي من يفضلون الشعر القديم لقدمه ويعـودون بالـزراية علي الحديث لحداثته وهو في هذا يذكرنا بتلك النظرات التي رأيناها من قبل عند ابن قتيبة .

يقـول القاضـي : (وما أكثر من تري وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلـسة الـرواة مـن يلهج بعيب المتأخرين فإن أحدهم ينشد البيت فيستحـسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عـصره وشـعراء زمانـه كـذب نفسه ونقض قوله ، ورأي تلك الغـضاضة أهـون محملا ، وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث ، والإقرار بالإحسان لمولد .

حكي عن اسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : أنشدت الأصمعي :

هل إلي نظرة إليك سبيل يرو منها الصدي ويشفي العليل

إن ما قل منك يكثر عندي وكثيـر ممـن تحـب القلـيـل

فقـــال : والله هـــذا الديـــباح الخسرواني ! لمن تنشدي ؟ فقلت إنـــه لليلتهما ، فقال لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر) [١] .

ويوازن القاضي الجرجاني بين المتنبي وكل من : ابن الرومي وأبي نـــواس وأبي تمام فنراه يتجاوز الإنصاف في النقد ويعنف في الحكم ويـــثور فـــي الخـــصومة فيري في ابن الرومي الشاعر الذي نقرأ القصيدة من شعره وهي تناهز المائة بيت أو تزيد أو تنقص فلا تعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق ويعجب أو البيتين لا يحصل منها السامع إلا علي تعدد القوافي .

ويتناول شعر أبي تمام فيوضح أنه أحيانا يترقي في الدرج العالية من الـــشعر ويتـــصرف هذا التصرف المعجز ، ثم ينحط إلي الحضيض ويلـــصق بالتـــراب ويقول : إنه ما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبـــيات ضـــعيفة وأخـــري غـــثة لا ســـيما إذا طلب البديع ، وتتبع العويص)

فـــإذا مـــا انـــتقل إلي الحديث عن أبي نواس ، رأيناه يكبر من شأن صاحبه المتنبي ، ويغض من منزلة أبي نواس ومكانته يقول : (لو تأمـــل متأمل شعر أبي نواس ثم وازن بين انحطاطه وارتفاعه لعظم

---

[١] هذه رواية الوساطة صـــ ٤٦ ، أما رواية الأغاني فقال : هذا الديباج الخسراوني ، هذا الوشي الإسكندري ، لمن هذا ؟ فقلت له : إنه ابن ليلته ، فتبينت الحسرة في وجهه وقال : أفسدته أفسدته ، أما إن التوليد فيه لبين .

من قدر صاحبنا المتنبي ما صغر ولأكبر من شأنه ما حقر ، ونعلم أنك لا تري لقديم ولا محدث شعرا أعم اختلالا وأقبح تفاوتا ، وأبين اضطرابا وأكثر سفسفة وأشد سقوطا من شعره هذا ، وهو الشاعر المقدم الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي وفسر ديوانه ابن السكيت .

وإذا كانت عيوبه : من غثاثة ورداءة ولحن وخطأ في الوزن واختلال في موسيقي الشعر ، ومن ضعف في العقيدة ، لم تغض من شاعريته ولم تنقص من مكانته فكيف يستساغ هذا المسلك مع أبي الطيب وحده يقول : (والعجب ممن ينقص أبا الطيب ، ويغض من شعره لأبيات وجدها ، تدل علي ضعف في العقيدة ، وفساد المذهب في الديانة) ويختم الجرجاني قوله في هذا المقام ببيان رأيه في العلاقة بين الشعر والدين ويقرر أن الدين بمعزل عن الشعر وأن سوء العقيد لا ينبغي أن يكون سببا لتأخر الشاعر أو الغض من مكانته .